ربيع ديب

المخاض ...

سيمضي الوقت وهو قابع في الركن ككل يوم .. يدخن كأي موظف يحمل اثقال البشرية فوق رأسه ، وكتلة اللحم تتحرك بين الغرف لا لشيء غير ان تشعره بوجودها . تنظر اليه بانكسار ولا يقوى على النظر .. ككل يوم حين يعود من عمله وحين يكتشف من جديد ان الحياة رتيبة على نحو فاجع وانه مطالب بموقف ما .. وشعوره المتجدد بانه مخصي ، يرهبه صخب الحياة في الخارج .. ينغمل في اعماقه ، يؤكد لنفسه انه مطالب بموقف ما .. وكتلة اللحم تجتهد في ان تؤكد وجودها وان جدران البيت تتسع لاكثر من شخص .

ينظر الى الجدار المواجه : اعداد من الكتب انتهى بالامس من اعادة ترتيبها ربما للمرة المائة ، والساعة في يده تشير الى الرابعة .. ساعتين وهو مسترخ في الركن والوسادة مطوية خلف ظهره ومن حوله تنتشر مجلات ثلاث .. اربع . يقلب الصفحات بنهم قلق .. يقرأ اسطرا من مقالة ، يلقي المجلة جانبا ، يتساءل : منذ متى اكتسبت هذه العادة ؟ وتأتي هي لتسند الباب وبطنها ينتفخ حتى ليخيل اليه انها ستنفجر .. ترتسم ابتسامة مقهورة على شفتيها فيفتح جملة « حين اقرأ افضل البقاء منفردا » شدد على هذه الملاحظة بطريقة استفزازية منذ شهر ، وهي كفت عن اقتحام خلواته . استدارت ببطء واختفت خارج الغرفة ، والمجلة عادت لتستقر على السرير .. تذكر والده ولسانه الملتوي بفعل الخمر : منذ اعتادت امك الشكوى والخسائر توالى .. امك شؤم .. امك شؤم .. يومها شرب الوالد حتى اتطفأ .وانت تقبع هنا والخمر اخر ما تفكر فيه .. تلح علي ان تظل يقظا لتواجه الشعور بانك مخصي ، وانها في احدى الغرف تنطوي على ذاتها وتتألم .. وتستعرض انت الماضي بسرعة خارقة : تظاهرة تسد الشارع ، واصوات تهدر مغيظة متحدية ، وانت على الاكتاف تهتف حتى تبح .. غرفة في مكان ما وانت بينهم تنقل عينك في الوجوه المهتمة ، تشد على مخارج الحروف وانت تتكلم ، تنسق معلوماتك بأسلوب اكتسبته من جدار الكتب في بيتك .. فاطور البناية يدخل بيتك ، ينظر اليك باحترام ، كعادته ، يجلس دون حرج قريبا منك ، ينتظر ان تستفسر عن احواله وان تقدم اليه الشاي كالعادة وان تتحدث اليه طويلا عن الخبز والسكر والارض . ولكنك في اخر زيارة له تدس في يده ورقة نقدية .. يلفك بنظرة استنكار وتصر انت ، ثم يخرج محرجا ليستقبلك ـ بعدها ـ صباح مساء رافعا يده بتحية عسكرية وشيء ما يلتمع في عينيه ، ربما هو الشوق الى فنجان الشاي والاستفسار الطيب العفوي .

تساءل : لماذا تخضع انت للمعادلة .. ولماذا كل يوم ـ والمصعد يرتفع بك الى الطبقات العليا في محل عملك ـ تشعر بالنبض يتسارع في انحاء جسمك .. وحين يحتويك المكتب تتفرغ بجميع حواسك .. وبقدر ما ترهبك اكوام الورق من حولك بقدر ما يثلج صدرك ان تمتد يد فاتنة تستأنف التوقيع ثم تروح تفكر بالمستقبل على نحو مغاير تماما .. يدهمك شعور غامض مسبق بموضع القرحة في المعدة . فلماذا .. لماذا انت بالذات تخضع للمعادلة ؟.

شعر بالالم يخترقه من اقصاه الى اقصاه .. تسلى في البحث عن السبب . هل هو اكتشافه لحقيقة الامر الموضوعية . وهل ان هذا الاكتشاف جديد .. ام هو قابع في مكان ما من حافظته الذهنية . تذكر مصطفى بوجهه المهتم واصابعه المتوترة يشير بها اليه : لا يمكنك الاستمرار في احلامك والاستمرار معنا في الوقت ذاته .. يومها ـ يذكر ـ حصر النقاش في دائرة بعينها واصر ان يستهلك ذلك ما تبقى من الوقت .. تحدث كما ينبغي لمثقف عن الانسلاخ .. عن الهجرة الطبقية باتجاه الادنى .. ولكنه الان يستطيع ان يؤكد على رأيهم فيه . فقد اصر الجميع على انه دفع بالنقاش الى مستواه النظري البحت ، في حين احتفظ مصطفى ، وبعقوبة صافية ، بربط النظرية بالواقع . ولا يدري هو لماذا احتقن وجهه بالدم كمتبار ساءته النتيجة ..

وكتلة اللحم ـ لماذا تصر على وصفها بكتلة اللحم ـ تعاود التجربة .. تسد عليك الباب من جديد وفي عينيها الصامتتين قرأ ملاحظاتها المعهودة « سيتقوض البيت من اركانه » .. وانت .. لماذا تنظر الى الامور نظرة سوداوية .. تضيق بجلوسها متكومة امامك ... تتوقع في اية لحظة ان تفجأك بالحديث عن اقتراب المخاض او ان تسمع الى الفسلفة لتنفوح وخيال امرأة رشيقة ومصقولة البشرة يخترق احلام يقظتك وتفرق بلا مبرر معقول في القارئة .. اي درك انحدرت اليه ايها المسكين ؟..

ـ لا يمكنك الاستمرار على هذا النحو ..

تقول هي مختصرة ازمته وازمتها معا .. ويتذكر مصطفى من جديد: لا يمكنك الاستمرار في احلامك .. وفي الخارج تصطخب الحياة ،هدير سيارات واصوات باعة ، وامرأة تعقد حديثا بين شرفتين .. اي

ضجر هذا ؟.. وانت مطالب بموقف مـا .. انت الذي ـ منذ زمن ـ لم تعد تذهب اليهم .. يرهبك النقد بقدر مـا تثقل عليك العبارةالتي افرغتهـا من النسغ : انتقد نفسي .. انتقد نفسي .. وانت هنا تتحفز لمواجهـة مـا .. لحديث ما ،تبتره بثورة غضبية مفاجئة :

ـ لشد مـا تغيرت .. تقول هي .. منذ هجرتهم وانـت اشبـه بطفـل مشاكس .

هذا الترتيب الزمني .. كيف امكن لها التحديد .. وهل ينبغي لاي انسان ان يتحول الى طفل مشاكس لمجرد ان يتقاعد ؟ توقف عند العبارة اللاصقـة بالذهـن .. (يتقاعد) .. كيف راودتك العبارة .. ولكنه كـان يتحفز :

ـ انت السبب ..

تذكر والده : امك شؤم .. الخسائر .. الشكاة .. الـ ..

ـ انت السبب ، قلت ، لا شيء في هذا البيت .. هذا المعتقل غير التفوع والتورم والمضاجعة الرتيبة

انفجرت هـي فـي بكـاء مفجـوع ... الف مرة قال لهـا ان بكـاءها يستفـزه .. امسك بالمجلـة ومزقهـا بعنف ، وهي ندت عنهـا حركة من يتوقع ذلك سلفا .. من اعتاد ان يتوقع ذلك سلفا وضغطت رغبتهـا في الاستمرار في البكاء . ومن جديد لفه الشعور بانه مطالب بموقف مـا ، وبانه مخصي، وان التورم والتفوع والمخاض فيـود تحبط فيه كل قدرة وملكـة .. ووجه مصطفى يقتحم عليهاحلام اليقظـة المنهمرة كالمطر والتورم في قدميه وهو يستلقي على فراشـه يعيش حالة التوسط بيـن الالم والمرح وهم يتحلقون حول فراشه .. حتى انت جئت تتفرج على التورم في قدمي مصطفى وكانك جئت تشهد محاضرة في الجامعـة لا ينبغي ان تفوتك ، ومصطفى يطلق صرخـة خافتة في طريقهـا الى التلاشي ثم يعقبهـا بضحكة ساخرة :

ـ ابناء الكلب .. رفعوني كالفروج والقضيب الحديدي تحتمخلع ركبتي ويداي في الاصفاد .. والكل تناوبوا على ضربي وانا معلق هكذا كالفـروج ..

ويطلق مصطفى ضحكته الساخرة وتتصور انت نفسك معلقا مثل الفروج .. يجتاحك الحقد وشعور بانك لن تقوى على اطـلاق ضحكة ساخرة مرحة مثل مصطفى فيما لـو .. ايهـا المخصي القابع فيركنك .. وجدار الكتب يستحيل تحفـة للتباهي ومظهرا من مظاهر التملـك والاستحـواذ .. وانت تضيق بكل ذلك وتفكـر بان وراء كل عظيم امرأة، وفي المكتب يرشوك الحاجب بانحناءة رشيقة دربة تكـاد ان تكـون غير ملحوظـة ..

* * *

وقف الحاجب بالباب .. قال ان رجلا لم يحلق ذقنه منذ اسبوع يود مقابلته ،وفي لهجته سكنت السخرية . ومصطفى وقف هناك كجمع شريبنة ، وهو تحفز للمواجهـة .. وفي الذاكرة تشبثت عبارة الحاجب الاخيرة (رجل لم يحلق ذقنه منذ اسبوع).. كان فارعا متينا ،وبرق نظرة واثقـة ينبثق من عينيه ثم ما لبث ان توزع في ارجاء المكتب هازئا ـ ربمـا ـ من قدرة انسان على الصمود داخل غرفة كهذه ، ضـقـة كسجن ، هكذا خيل اليه هـو.. والمروحة الكهربائية تعصف بالاوراق فوق مكتبه .. يغادر المفاجاة..يندفع بكليته ويلتصق بمصطفى يستجدي الدفء والثقـة .

ـ لدي بعض الوقت .. قلت امر عليك .

قال مصطفى ويده تعبث بعلبة الاقلام على المكتب .. اشار هـو براسه مرحبا .. ودفعة واحدة توقع مواجهـة من نوع ما بجميـع تفاصيلها .. شعـر سلفا بالضعف حيالها .. كان مـا يزال رهين منطقه السقيم بانه طرف في مباراة .. قرر ان يكون متواضعا الى ابعد الحدود وان يسقط من حسابه كل احتمال بالتحدي يصدر عن مصطفى .. ولكن مـا بال مصطفى يستمر عفويا كطفل .. ايهـا الاتي لتنبش قبرا .. عجل مـا استطعت .. فالقلب سقيم ،والماضي فيء لهذا القلب فـلا تجعله عصا .. كف عـن تعرية الفرقة وتعرية النفس .. والتهمة لاصقة بالزوجـة الفراء .. ومصطفى سيستخدم مفردات كلفت بها وكررتهـا طويـلا حتى افرغتهـا من النسغ . والصمت يطول وانت تتركه فـوق المقعـد كشيء منسي يحك الشعيرات الناتئة في وجهه ويمنحك الشعور بصلابة الشفيـل .. يحررك من الشعور بانك طرف في مباراة ..

ـ ذلك يحدث لاي انسان .. اليس كذلك ؟

ـ بالضبط .. او ربما ليس دائما ..

ـ ولكن ما من انسان كان يتوقع ان انحدر .. اليس كذلك ؟

ـ ناقشنا الامر سابقا .. وانا ما جئت لاثارته .

ـ ولكن ..

ـ حدثني عنك .. عن الزوجة والطفل الموعود ..

ـ تتهرب من النقاش .. اليس كذلك .. لا تريد احراجي .

ـ مـا نزال نامل في ان تعود ..

بعفوية يمنحك الحكم بالبراءة وما كنت تتوقع .. واليافطة تضيـق حول عنقك ، والمروحةما تزال تعصف ..تؤسس في خلاياك استعدادات الزكام والروماتيزم .. وغرفة كهذه ضيقـة ولكن من الصفيح تـراوء الذاكرة و (حرش تابت) يغدو محجة دونهـا النحرر من الشعـور بالتواضع تبذله متكلفا ، والاطفال بقذاراتهم وذبابهم سينكرونك وزوجة مصطفى ستبالغ في تكريمك وهي تقدم القهوة . وينشرنق حديثك اليهم بعلامـات الاستفهام . وزوجة مصطفى ستتساءل سرا او جهرا أتمثـل انت نموذج البرجوازي الصغير الذي يتحدثون عنه .. وان تتحدث انت بصدق عن السكر والخبز والارض امر دونه الراتب الذي افسـدك واعتيادك التقوقع كسلحفاة .. ولكن ذلك لا يحدث باستمرار .. لا يحدث للجميع .. ومصطفى امامك يحدث بعفويه ، توقع ان يدس في سترتك منشورا أو مجلة .. ان يغسلك من الداخل .. وتسأل انت كيف الجميع وفي سؤالك تكتشف ان خيطـا ما يزال يربطك بهم .. ويسالك مصطفى مجددا كيف هي ، وتختبىء انت وراء الصمت تخشى ان يقرأ في وجهك صورة عن كتلة اللحم وضيقـك بالتفوع والتـورم والمخاض المنتظـر ..

* * *

والطبيب يطل براسه ليقول ان المخاض عسير وانك وحدك معني بالامر ، وببرودة الثلج يطرح السؤال التقليدي : الام ام الولد ؟ينتحي بك ركنـا وعلى وجهه لا مبالاة من اعتاد الامر ، ووجيف القلب ينتقـل الى وجهك وفي لحظات عليك ان تقرر مصيرا .. اي سلطة تمنـح ؟ وعذابات الماضي تهون حيال عذاب الحاضر .. وتتلاشى في رأسك اخيلة العظماء ويهجرك الدون كيشوت ..

والجميع اتوا : مصطفى وناطور البناية .. وزوجة مصطفى بكفيها المتشققين .. والاهل في غرفة الاستقبال يثرثرون بلا انقطاع .. يعـود

اليهم ليقول ما فانه الطبيب . يقول الاب ان الام اولى بالحياة وليذهب الولد الى الجحيم ، ولهجته تخلو من اية حرارة .. زوجة مصطفى تنتقل بقلق ظاهر بين الصالون وباب غرفة العمليات وفي وجهها يقرأ صرخة مكبوتة ..

ـ الام والولد ..

تقول زوجة مصطفى ويهز الناطور راسه مؤكدا باصرار ..يقترب مصطفى منه ، يضع كفا على كتفه :

ـ الكل معني بالامر .. واي نوع من الاجهاض معناه كارثة ..

ومع كل لحظة يشتد الشعور بالخطر وان الجميع معنيون بالامر.. وانه مطالب بموقف ما .

تهالك على المقعد وبدا انهم تركوه يقلب الامر مليا : الاهل كفوا عن الثرثرة ، وزوجة مصطفى ما تزال تخنق الصرخة وهي بين مصطفى والناطور على مدخل الشرفة .. وبدت له الموازنة عسيرة والماضي امتلأ بنافورة دم وغسله . قال لنفسه ان من السخف ان تحل المسألة داخل غرفة العمليات وبمعزل تام عنه ، وان زوجة مصطفى تلد ابناء اصحاء في (حرش تابت) وجميع نساء الحرش هناك يلدن ولادات هينة وعسيرة وان الولادة امر لا يتم باي حال دون مخاض ودم وبنون اطفال يموتون واطفال يحيون .. ولكن كيف سمحت ان يأتوا بها الى هذا المستشفى .. كيف ؟ ولكن انت كنت هناك بعيدا حين اتوا بها ، وهاانت تواجه واقعا قاسيا واختيارا يحذف في غرفة العمليات الانيقة والرهيبة جزءا من اسرتك ، من حياتك ، والوقت يمضي مسرعا .. الوقت ، والطبيب وممرضات قاسيات الوجوه يعبرن في الاروقة ، واكلاف يعاد النظر في حسابها على ضوء الحالة المستجدة يدخل والدك طرفا فيها والقيمون على المستشفى طرفا اخر .. وتكتشف انت ان منحك حرية الاختيار اكذوبة يسترون بها قراراتهم ونظرتهم للامور ..

يكتشف انه ما يزال مسمرا الى المقعد .. يخرج الطبيب مرة اخرى ليسأله من جديد .. وكالزغرودة ينطلق صوت زوجة مصطفى :

ـ نريد الام والولد ..

تسود الدهشة والاستنكار .. يلتفت الطبيب محنقا ويصرخ : « اخرجوا هذه المرأة » .. يتحفز مصطفى وينضم البواب اليه .وفيما تحاول الممرضة اخراج المرأة يكسر والده منفضة السجائر في اخر الصالون ليصرف الانتباه .. ولكنه هو يقف بعنف ، ويختلط في رأسه حب السنوات الطوال الماضية ومعاناة التقاليد ونشوة الفوز بالزواج، ورغبة ابوية مشبوبة في ان يكون له ولد .. ومصطفى يندفع اليك بعنف :

ـ ايها الاحمق .. قل كلمتك .. الطبيب يختلق البدعة ليضفي على الولادة طابعا ماساويا .. الكل مشغوفون بالمآسي . بالرقص على الجروح ونحن ندفع الثمن .. قل كلمتك .. قل كلمتك ..

ووقف هو في الغرفة مبهورا .. احس بوطأة الوقت وتسارعه .. تأرجح بين ان يصغي الى صوت والده او يصغي الى مصطفى .. وكان اكثر من اي وقت مضى مطالبا بموقف ما ..

بيروت

هادي ياسين علي

حب

من اين للقلب هذا العناء المكابر ، لو لم تكوني ؟
لعل الذي بيننا
لم يكن غير هذا الذي بين كل المحبين
لو لم تكوني الحبيبة انت .
اتدرين : للشط ذاكرة
وبين النوارس والشط سر : بانا نحب
فهل تعرفين لماذا النوارس مجنونة بالغناء اذن .. ؟
لماذا تروح وتاتي ؟
لاجلك انت

.. وها ان بيني وبينك شيئا
وبين النوارس والشط شيئا
وان النوارس قد أتعبتها الرياح
ولكنها اذا ما استراحت
تخطط عند الشواطيء ـ في الطين ـ وجهين بالعشق مفتسلين
لان الذي بيننا قد تعدى حدود الجراح

احسك مزروعة في دمي
فهل تدركين « العناء المكابر » .. هل تدركين ؟
لعلك تستغربين لماذا النوارس مجنونة بالغناء
ومن قال للشط انا نحب ،
آه محبوبتي ..
وجهي ووجهك بالعشق مفتسلان
وفي جبهتينا نقوش من التعب الشاعري
وذلك يكفي لان يعرف الطير والشط انا نحب
وانا
لهذا العناء المكابر مستسلمان

(البصرة ـ السيبة)